امتداد مطلب البحث في الإعجاز بإعمال النموذج المعرفي
حالة عبد القاهر الجرجاني في " دلائل الإعجاز "
د.عبد المجيد طلحة

ملخص البحث

يدرس البحث مباحث الإعجاز باعتبارها جهدا علميا مستلهما لتفاصيل النموذج المعرفي بما هو تصور كلي لقضايا العلم والمعرفة في التراث الإسلامي من خلال تتبع نصوص عبد القاهر الجرجاني في دلائله ؛ وهو لا ينفصل عن مشروع علمي امتد لأزيد من عقد من الزمن ؛ رام فيه صاحبه إعادة قراءة النص اللغوي ؛ واستثماره في ترتيب أولويات البحث العلمي بما يجعله مترجما لطبيعة الحوار بين النماذج في صلتها بسياقها التداولي الخاص . واتخذ الباحث كتاب " دلائل الإعجاز " معتبرا إياه أحد صور تجلي إعمال مقتضيات النموذج المعرفي بأسئلته ومباحثه . فسؤال الإعجاز هو أحد تجليات المقاربة لقضايا الوجود الكبرى من خلال العلاقات بين الله والإنسان والطبيعة وقد درس البحث من عدة محاور أهمها : النموذج المعرفي في القول اللغوي . و مرجعية القول الجرجاني في الإعجاز. و خصوص الاستدلال على إعمال المرجعية الكامنة . و امتداد القول الجرجاني في أفق بناء نموذج معرفي إسلامي باستثمار البحث في الإعجاز. وختم الباحث بحثه بنتائج عدة منها: ان صوارف الفهم الحقيقي لعلم الكلام اعتمد تعريف غائي له بحسبانه غير منتج للمعرفة، والواقع غير ذلك، فهو علم تحصيل المعرفة يحدد تبعا لموضوعه خلاف العلوم ذات الهوية الآلية التي تعرف حسب الهدف والوظيفة

Extending the Research Demand in Miraculousness by Implementing the Cognitive Model
The Case of Abdul Qahir al-Jarjani in "Signs of Miraculousness "

Dr. Abdul Majid Talha

Abstract

The study examines miraculous researches as a scientific effort based on the details of the cognitive model, which is a holistic perception of the issues of knowledge and science in the Islamic heritage through tracking the texts of Abdul Qahir al-Jarjani in his evidence. It is inseparable from a scientific project extended for more than a decade. The scholar has wanted to reread the linguistic text and use it as an investment in organizing priorities of scientific research; making it interpreter for the nature of dialogue between the models in relation to their own deliberative particular context . The researcher divides the study into several dimensions, the most important of which is: the cognitive model in the linguistic statement, i.e., Al Jarjani in the miraculousness . And in particular to infer the realization of the underlying reference and the extension of the word Jarjani in the horizon of constructing an Islamic knowledge model by investing research in miracles. The researcher concludes that the science of speech is the science of collecting knowledge depending on the subject of science other than the identity of the mechanism defined by objective and function.

الإعجاز بإعمال النموذج المعرفي
حالة عبد القاهر الجرجاني
في "دلائل الإعجاز"

د. عبد المجيد طلحة

جامعة مولاي إسماعيل - مكناس -

المملكة المغربية

مقدمة

يقوم زعم الورقة على اعتبار مباحث الإعجاز جهدا علميا مستلهما لتفاصيل النموذج المعرفي بما هو تصور كلي لقضايا العلم والمعرفة في التراث الإسلامي من خلال تتبع نصوص عبد القاهر الجرجاني في دلائله؛ وهو لا ينفصل عن مشروع علمي امتد لأزيد من عقد من الزمن؛ رام فيه صاحبه إعادة قراءة النص اللغوي؛ واستثماره في ترتيب أولويات البحث العلمي ح بما يجعله مترجما لطبيعة الحوار بين النماذج في صلتها بسياقها التداولي الخاص .

وسيسلم جدلا بانتساب كتاب " دلائل الإعجاز " للمنجز في البحث البلاغي؛ معتبرا إياه أحد صور تجلي إعمال مقتضيات النموذج المعرفي بأسئلته ومباحثه . فسؤال الإعجاز هو أحد تجليات المقاربة لقضايا الوجود الكبرى من خلال العلاقات بين الله والإنسان والطبيعة؛ بل الحديث حول التمثيل في ذلك للإرادة الإلهية والمنازع الإنسانية؛ التي تمتد في مرجعيات تستلهم في تفسير الظواهر؛ وتحديد مديات الوجود الإنساني وامتداده .

وإن منجز عبد القاهر الجرجاني في الإعجاز من خلال دلائله لهو أحد التجارب الرائدة المنفتحة على ممكنات الربط بين " النموذج المعرفي الكامن " والاستدلال على علو كلام الله حكما ونصا واستدلال وتحققا؛ يدل على ذلك " بلاغة " " النص الحاكم " التي تنقل مدركها من البحث في " بلاغة القرآن " إلى تأسيس " قرآنية البلاغة " ؛ ومنها إلى " قرآنية "[1] العلوم الناظرة في "النص".

(١) مصطلح " القرآنية " لا ينصرف إلى تقابله مع غيره بما اشتهر في مجال التداول من سنة؛ ولكنه يستعمل في سياق إبراز فرادة انتساب النظام المعرفي الإسلامي إلى الموجهات المعرفية الكبرى لنصوص الوحي قرآنا وسنة . وبما يجعله نظاما له أسئلته الكلية؛ ومجاله التداولي العلمي؛ ومنطلقات العلوم المشكلة له؛ بل ومقاصدها؛ وليست وسائلها في ذلك إلا أدوات مستلهمة للمنطلق محققة للمقصد .

وتنتظم الورقة في محاور :

- النموذج المعرفي في القول اللغوي .
- مرجعية القول الجرجاني في الإعجاز .
- خصوص الاستدلال على إعمال المرجعية الكامنة
- امتداد القول الجرجاني في أفق بناء نموذج معرفي إسلامي باستثمار البحث في الإعجاز.

فلما كان منجز عبد القاهر الجرجاني على ذلك الوصف في تعبيره عن النموذج المعرفي؛ وجب التقديم في قصدنا به.

١ – النموذج المعرفي في القول البلاغي :

يتحدد النموذج المعرفي حسب تصور عبد الوهاب المسيري في كونه " بنية تصورية يجردها عقل الإنسان من كَمٍّ ضخم من العلاقات والتفاصيل والوقائع ... ثم يربط بينها وينسقها تنسيقا خاصا بحيث تصبح (حسب تصوره) مترابطة "[١]، يجسد التصور فعلا إدراكيا مستكشفا للذات الإنسانية ولغيرها مما يحيط بها من صور الوجود؛ وتسعى أنظمة التمثيل إلى إعادة صياغة هذا الإدراك، فيغدو الأخير بذلك " عملية تفسير "[٢] . يطرح على النموذج بذلك التصور اختبار العلمية من الجهة الداخلية حيث مطلب النجاعة ومن الجهة الخارجية حيث مطلب الإبراء في المنطلق والنتيجة، وكونه معرفيا ينصرف به النموذج إلى تناول " الصيغ الكلية والنهائية للوجود الإنساني "[٣] .

ولا تجد تحديدات النموذج المعرفي إلا في دوائر التقاطع بين عناصر أساسية " الإله؛

(١) المسيري؛ عبد الوهاب؛ اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود دار الشروق؛ بيروت؛ الطبعة الثالثة؛ ٢٠١٠؛ ص ٢١٨

(٢) م ن؛ ص ن

(٣) م ن؛ ص ن

والطبيعة؛ والإنسان من خلال سؤال العلاقة والهدف من الوجود . فالنظام المعرفي (النموذج المعرفي) هو مجموع الأفكار المترابطة التي تقدم رؤية شاملة للكون والحياة؛ فجميع العلوم ومختلف المعارف بما هو صور نظر تكون مادة البناء لذلك النظام؛ بل وأدوات الاستدلال على قوته التفسيرية؛ على حد تعبير عبد الوهاب المسيري[1] . فالإنسان فاعل ومستكشف لذاته أو لغيره يتلقى الواقع في أبسط عمليات الإدراك ويعيد صياغته، وهو ما يجعل هذا " الإدراك هو ذاته عملية تفسير "[2] .

النموذج المعرفي إذن صورة إدراك وبنية تصورية؛ اختار علماء البلاغة ومعهم علماء اللغة أن يتتبعوا صورة هذا النموذج من خلال عناصر رؤيته الفلسفية التي عليها تتأسس المقولات الواصفة للظاهرة اللغوية والبلاغية؛ وفي مقدمتها البحث عن الإعجاز خصيصة دالة جامعة لعناصر مفارقة كلام الله لغيره من سائر ألوان الكلام . ولما كان الكلام الإلهي أحد الموضوعات الرئيسة في علم الكلام الإسلامي؛ أخذ الريادة والتوجيه بطبيعة موضوع نظره باعتباره " "نظرا في الله؛إذ لا نظر إلا في الله ولا مطلوب سوى الله»[3] فعلم الكلام " علم الكلام منه»تستمد العلوم، وهو لا يستمد من غيره فهو رئيس العلوم على الإطلاق»[4] .

---

(١) يقترح عبد الوهاب المسيري اعتماد معياري» أقل تفسيرية " و» أقوى تفسيرية " بدلا من معياري " الموضوعية " و " الذاتية " في قياس علمية الأقوال؛ بناء على ما تجسده من حقائق النموذج المعرفي . أ

(٢) اللغة والمجاز؛ ص ٢١٨ .

(٣) أبو حامد، الغزالي؛ الاقتصاد في الاعتقاد، قدم له وعلق عليه وشرحه الدكتور علي أبو ملحم، ١٩٩٣، دار مكتبة الهلال، بيروت، نقلا عن العلوي، سعيد بنسعيد؛ : الخطاب الأشعري،مساهمة في دراسة العقل العربي الإسلامي دار المنتخب العربي بيروت ص: ٧٢،

(٤) الآمدي، سيف الدين، المواقف في علم الكلام. -غاية المرام في علم الكلام، تحقيق حسن محمود عبد اللطيف، ١٩٧١، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة المواقف ص: ٨، نقلا عن الخطاب

وسيكون أحد أوجه الكشف عن ترابط العلوم في النموذج المعرفي؛ تتبع الصلات المكينة من العلوم المختلفة المنتسبة لنموذج أو نظام معرفي واحد؛ واستصحاب ما تدل عليه طبيعة العلاقات القائمة بين تلك العلوم موضوعا وأدوات تحليل بل وعدة مفهومية موظفة . وسنجرب هذا التحقق التكاملي بين مختلف تجليات النموذج العلومية من خلال بعض نصوص عبد القاهر الجرجاني في البلاغة والإعجاز القرآني؛ ونرتب على ذلك ما ستوجبه سياق التوظيف من مطلب امتداد النموذج بامتداد منطق علومه؛ وصور تعالقاتها؛ وأشكال توظيفها؛ بل ومقاصد بنائها [1] . كما أن البلاغة بناء على ما ذكر اكبر من علم وسائل لما تلتزم روح ما استمدت منه الموضوع والنموذج القولي؛ وتكون في ذلك قدوة لكل العلوم؛ التي تترجم في منطلقاتها وأدوات بحثها ونتائجها حقائق النظام المعرفي نشأة واشتغالا وتوظيفا، يقول لبعض ذلك عيد بلبع " ... والأمر مختلف في سياق تلقي القرآن؛ فهناك فريق من الناس هدفهم التكذيب، هذا يعني أن خصوصية استعمال اللغة في القرآن تراعي هذا الموقف الضدي المأخوذ سلفا من مستوى

الأشعري ص: ٤٠

(١) يؤكد الشاطبي أن علوم الشريعة أفضل العلوم وأعضمها أجرا في الآخرة، وأن منها ما يجري مجرى المقاصد؛ ومنها ما يجري مجرى الوسائل، وأن المقاصد أعلى من الوسائل، الجزء ٢ من الاعتصام، ص: ٢٩٦، وهي فتاوى الإمام الشاطبي حققها وقدم لها محمد أبو الأجفان، ط ٢، ١٩٨٥.
وعنده : تتفاضل العلوم على حسب شرف غايتها، أو قوة دلائلها، أو كمال موضوعاتها، ولهذا كان أشرف العلوم وأرفعها منزلة، علم التوحيد، ثم ما ينبيني عليه من سائر علوم الشريعة»، ص: ٧، هامش ٧. ويقول في المقدمة السابعة في نفس المرجع: "كل علم شرعي، فطلب الشارع له إنما يكون [من] حيث هو وسيلة إلى التعبد به لله تعالى، لا من جهة أخرى، فإن ظهر فيه اعتبار جهة أخرى، فبالتبع والقصد الثاني، لا بالقصد الأول» من المجلد الأول، ص: ٧٣، من الموافقات للشاطبي، تقديم بكر بن عبد الله أبي زيد، ضبط وتقديم وتعليق وتخريج الأحاديث لأبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط ١، ١٤٢١، دار ابن عفان.

المعارضين لأمور العقيدى التي يقرها القرآن الكريم؛ ...؛ ولذلك فإن الأمر يتطلب نصا فوق مستوى التكذيب (فوق مستوى الطعن)، فوق مستوى الاتهام والإنكار، وقد تحقق هذا في النص القرآني، إذن نحن أمام نص قبله الذين لم يؤمنوا به على المستوى الجاملي والفني فحقق تواصلا معهم، بل على مستوى الدقة والإحكام ... كما حقق على مستويات متعددة تواصلا عبر الإيمان به كتابا معجزا تشريعيا غير تاريخي، أي لا تحده حدود الزمان " [1] . سنثبت من خلال هذه الورقة كيف امتد البحث في الإعجاز بين العلوم الإسلامية؛ وكيف يمتد في تفاصيل النموذج المعرفي باستثمار قرائي منتج من نصوص عبد القاهر الجرجاني في كتابه " دلائل الإعجاز " .

٢ - مرجعية القول الجرجاني في الإعجاز :

تكون إحدى صور التداخل بين علم الكلام وعلم اللغة عموما رصد حضور قضايا لغوية عند المتكلمين بتوجيه مقولات كلامية للنظر اللغوي، مع إقرارنا بحقيقة مسلمة أن تداخل العلوم والمعارف حقيقة معرفية قائمة في ذات العلوم وليست اجتهادا نظريا، ثم إننا لا نعتبر علما تابعا لآخر أو أساسا له إلا بقدر ما امتلكه من سبق تاريخي وتميز نظري. وأجلى صورة لحضور ذلك التداخل عند اللغويين هو ما سطره الجرجاني من منهج بلاغي قائم على تنفيذ مقولات كلامية هي في أساسها مقدمات أساسية للنظر اللغوي حيث: <<وضع النحوي لأبحاثه مقدمات أساسية قدم فيها اعتبارات للأوضاع اللغوية الممكنة هي أصل الوضع >>[2]. بل إن كل قول لغوي أو بلاغي مستند على

(١) بلبع عيد؛ دلائل الإحكام في البلاغة القرآنية؛ الطبعة الأولى؛ ٢٠١٤؛ مصر العربية للنشر والتوزيع القاهرة؛ ص ٢٢ و ٢٣ بتصرف

(٢) درويش محمد ، اللغة النحوية في كتابات ابن مالك، رسالة علمية في خزانة الأطروحات والرسائل الجامعية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية؛ جامعة محمد الخامس؛ الرباط ص ٤٨

قول أول؛ وهو ما جعل درويش الجندي، يقول:<< إن نظرية النظم (وهي جوهر القول الجرجاني) قامت على أساس ديني وأن الأساس الديني هو الحافز لعبد القاهر على أن يكتب ما كتب من البحوث البلاغية>>(١). فالبلاغيون سيستحضرون حقائق الاعتقاد، وهم يصوغون نظرياتهم في اللغة(٢)، ويمثل لذلك أحمد أبو زيد بدراسة ألوان المجاز بما فيها الاستعارة: <<... ومما يدل على أن التوحيد والتنزيه المطلق كان باعثا على دراسة ألوان المجاز بما فيها الاستعارة، ما جاء عنه عبد القاهر الجرجاني الأشعري في معرض تقسيمه أنواع الاستعارة حيث قسمها إلى تحقيقية وتخييلية، ثم ذكر أن عدم التفرقة بين هذين القسمين يوقع في فساد العقيدة>>(٣).

وكان من المقولات الأشعرية الأكثر حضورا في الدرس اللغوي مقدمة الكلام النفسي ونظريتهم في إعجاز القرآن.

٢ – ١ : مقدمة الكلام النفسي:

خلاصة تحديد الأشاعرة للكلام أنه المعنى القائم في النفس يقول الباقلاني: <<إن حقيقة الكلام على الإطلاق في حق الخالق والمخلوق إنما هو المعنى القائم في النفس،

(١) ١٢ – الجندي، درويش، –نظرية عبد القاهر في النظم، ١٩٦٠، مكتبة نهضة مصر، ص ٨و٩.

(٢) نضيف إلى جملة الأقوال الرابطة بين البحث في اللغة والنظر الاعتقادي، ما يذهب إليه أحمد العلوي تتويجا لاستعراضه لحقائق حول البحث اللغوي العربي من أن: "اللغة العربية في طريقة جمعها وفي النظر إليها عولجت بالطريقة التي عومل به الوحي السماوي، هي لا نهائية كلانهائية الوحي وهي تأخذ من قوم أميين كما أخذ الوحي عن الرسول الإلهي، هناك غير هذا في التشابهات الشكلية التي تؤكد أن اللغوين القدماء كانوا ينظرون إلى عملهم باعتباره بحثا في الرسالة اللغوية الموازية للرسالة الدينية» آيات الفكر وكبرياء النظر (أصول من السيبويهية) مجلة الموقف، العدد ١، رجب ١٤٠٧/ مارس ١٩٨٧، ص: ١٩.

(٣) – أبو زيد، أحمد، المنحى الاعتزالي في البيان وإعجاز القرآن، ط ١ ١٩٨٦، مكتبة المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، ص١٨٦ .

وجعل لنا دلالة عليه تارة بالصوت والحروف نطقا؛ وتارة بجمع الحروف بعضها إلى بعض كتابة؛ وتارة إشارة ورمزا دون الحرف والصوت؛ مستدلا بقوله تعالى: <<إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك رسول الله والله يعلم أنك لرسوله، والله يشهد أن المنافقين لكاذبون>> (المنافقون-١). حيث كذب المولى عز وجل المنافقين فيما تكنه ضمائرهم وسرائرهم لا في ألفاظهم (١). وإلى نفس المعنى يذهب الجويني حيث يقول: <<الكلام هو القول القائم بالنفس، وإذا رمنا تفصيلا، فهو القول القائم بالنفس؛ التي تدل عليه العبارات وما يصطلح عليه من الإشارات>>(٢).

يقسم إذن الأشاعرة الكلام إلى قسمين: كلام مركب من الحروف والأصوات، وهو عندهم محدث وهو القرآن المشاهد، وكلام نفسي لم يزل مع الله تعالى. وهو جوهر واحد لا تركيب فيه، وهذا الكلام هو كلام الله القديم، وبهذا المنحى جعلوا الإعجاز في نظم المعاني وليس في الجانب المادي في الكلام، ولا في الحروف المنظومة والأصوات المقطعة، واجتهد عبد القاهر الجرجاني في تنفيذ البرنامج الأشعري اللغوي حيث بنى كتابه "دلائل الإعجاز» على نظرية الكلام النفسي، فكان همه بيان العلاقة بين الكلام النفسي والكلام الخارج(٣).

٢ -٢ : الكلام النفسي في النص الجرجاني :

تعد مقولة الكلام النفسي موجهة للبحث عن المزية في المعاني المرتبة والتي تتأسس

(١) موسى، جلال محمد، نشأة الأشعرية وتطورها، ط ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، دار الكتاب اللبناني بيروت، ص: ٣٥٥

(٢) - أبو المعالي، عبد الملك الجويني، الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، حققه وعلق عليه : محمد يوسف موسى وعلي عبد المنعم عبد الحميد، مكتبة الخانجي، مصر، ص:١٠٤

(٣) - يماثل ذلك على المستوى النظري العلاقة القائمة في اللسانيات النفسية بين: القدرة والإنجاز أو بنية المرئي أو بنية اللامرئي.

عليها الألفاظ، يقول الجرجاني في تفسيره للعمليات الكلامية، <<... وأنك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك، فإذا تم لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها(...) وأن العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ. الدالة عليها في النطق>>(١).

يميز الأشاعرة في الكلام بين النفسي وما يدل عليه، ونجد لذلك صدى في تنظيرات الجرجاني اللغوية حيث يقول: <<... وليت شعري، هل كانت الألفاظ إلا من أجل المعاني وهل هي إلا خدم لها، ومصرفة على حكمها؟ أو ليست سمات لها وأوضاعا قد وضعت لتدل عليها؟ فكيف يتصور أن تسبق المعاني وأن تتقدمها في تصور النفس؟...>>(٢) وهو ما وجه البحث اللغوي أيضا إلى رصد العلاقات بين بنيات المعاني و بنيات الألفاظ، والصورة التي يكون عليها الكلام في أنفس المتكلمين، حيث يتجه البحث الجرجاني نحو الكشف عن عمق المعاني النفسية، <<لم يخل (...) الذي جعل في الألفاظ فكرا من أحد الأمرين>> إما أن يخرج هذه المعاني من أن يكون لواضع الكلام فيها فكر ويجعل الفكر كله في الألفاظ وإما أن يجعل له فكرا في اللفظ مفردا عن الفكرة في هذه المعاني، فإن ذهب إلى الأول لم يكلم، وإن ذهب إلى الثاني لزمه أن يجوز وقوع فكر من الأعجمي الذي لا يعرف معاني ألفاظ العربية أصلا في الألفاظ، وذلك مما لا يخفى مكان الشنعة والفضيحة فيه>>(٣) استدلال على سبق المعاني ومركزيتها ليس فقط في بناء نظر المتكلمين بل أيضا

(١) - الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز تحقيق محمود محمد شاكر (أبو فهـــر)، ط١، ١٩٨٩، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص ٥٤.

(٢) - ن.م ص ٤١٧.

(٣) - ن.م.ص ٤١٦-٤١٧

فكر العرب(١) منهم العارفين دون غيرهم لمعاني ألفاظ العربية والنمط العالي من الكلام بناء على القول بالمعاني النفسية هو: << ما تتحد أجزاؤه حتى يوضع وضعا واحدا>> (٢). وفي بيانه للكيفية التي يتم بها الربط بين الألفاظ والمعاني، يوضح أن ذلك يتم ضرورة فيقول: <<واعلم أن ما ترى لا بد منه من ترتب الألفاظ وتواليها على النظم الخاص، ليس هو الذي طلبته بالفكر، ولكنه شيء يقع بسبب الأول ضرورة، من حيث أن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها>>(٣) عملية التركيب تلك بين المعاني والألفاظ هي ما يسميه الجرجاني ب»النظم» جاعلا العبرة في ذلك العلاقة القائمة بين الألفاظ والمعاني من جهة التناسق حيث يقول: <<... ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل>>(٤)، فالنظم عملية تركيب وربط، والمرجع فيه ليس اللفظ بل الفكر وبالنظم تتفاضل فنون القول، وعليه تبنى أوصاف البلغاء ومراتب البلاغة وهو صنعة يستعان عليها بالفكر إنه سبيل تمايز أصناف المتكلمين، وهو قائم على ترتيب المعاني في النفس، فلو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه، دون أن يكون الغرض تركيب المعاني في النفس ثم النطق بالألفاظ لكـان ينبغـي ألا يختلف حال اثنين في العلم

(١) - دون نسيان أن "اللسن العربي هو الحامل للثقافة العربية الإسلامية، وعلى ضوء بنيان اللغة ودلالة مفرداتها تتحدد صورة المعرفة العربية، وبنية التفكير والمنهج على الأرجح، فبالأسماء العربية تعرف المعاني الإلهية والأسماء الإلهية» أثر الخصوصية العربية في المعرفة الإسلامية، د. رفيق العجم، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط ١، ١٩٩٣، ص: ١٥٣.

(٢) - دلائل الإعجاز. ص ٩٥ و قد أشار إلى ذلك في سياق نقده لنصوص شعرية ضمن<<فصل في النظم يتحد في الوضع و يدق في الصنع>>

(٣) - ن. م. ص٥٢

(٤) ن. م. ص٤٩-٥٠

بحسن النظم أو غيره الحسن فيه، لأنهما يحسان بتوالي الألفاظ إحساسا واحدا، ولا يعرف أحدهما في ذلك شيئا يجهله لآخر>>(١)، فجهد المتكلم منصرف إلى معاني الكلم لا إلى الألفاظ، وعملية النظم والترتيب في الكلام عمل مرتبط بمعاني الكلم لا في ألفاظها(٢)، والحكم على قول ما يبنى على النظم حيث يتم النظر إلى الألفاظ مرتبة على الأنحاء التي يوجهها ترتيب المعاني في النفس>> (٣)، والترتيب الضمني مضمون عند المتكلم بشرط القصد إلى نموذج ذي صفة محددة وصورة مميزة <<وجملة الأمر أنه لا يكون ترتيب في شيء حتى يكون هناك قصد إلى صورة وصفة إذا لم يقدم فيه ما قدم، ولم يؤخر فيه ما أخر>> وبدئ بالذي ثني به، أو ثني بالذي ثلث به، لم تحصل له تلك الصورة وتلك الصفة>> (٤).

ولأن الحكم على قول يبنى على النظم، فإن الفهم يجب أن ينصرف إلى مدلول العبارة لا إلى العبارات؛ كما فعل الصحابة رضوان الله عليهم الذين أقروا بوجود الله ووحدانيته دون الحاجة إلى مفاهيم "الجوهر» و»العرض» و»صفة النفس»، والرأي على ما قاله المتكلمون، "الاعتبار بمعرفة مدلول العبارات، لا بمعرفة العبارات» فإذا عرف البدوي الفرق بين أن يقول: "جاءني زيد راكبا»، وبين قوله: "جاءني الراكب» لم يضره أن لا يعرف أنه إذا قال: "راكبا»، كانت عبارات النحويين فيه أن يقولوا في "راكب»: "إنه حال»، وإذا قال: "الراكب أنه صفة جارية على "زيد»(٥).

---

(١) ن. م. ص ٥١
(٢) ن. م. ص ٣٥٩
(٣) ن. م. ص ٣٦٠
(٤) ن. م. ص ٣٦٤
(٥) ص ٣١٨ من دلائل الإعجاز

ينصرف جهد الجرجاني في الاستدلال اللغوي إلى إثبات ملكية الأقوال، وارتباطها بأصحابها؛ ذلك أن مدار المشروع الجرجاني يقوم على إثبات خصوصية النظم القرآني على غيره من أشكال النظم البشري أي ما يكون به القول ملكا لصاحبه، فرغم اشتراك المتكلمين البشري والإلهي في الألفاظ فإنها تتخصص بمجرد توخي النظم يقول الجرجاني: "وههنا أمر عجيب، وهو أنه معلوم لكل من نظر، أن الألفاظ، من حيث هي ألفاظ وكلم ونطق ولسان؛ لا تختص بواحد دون الآخر، وأنها تختص إذا توخي النظم (فلذلك صح أن يكون هو بؤرة الإعجاز وجهة التفرد) وإذا كان كذلك» كان من رفع "النظم» من البين (البين كلمة تعني من بين ما يجعلها تختص بقائل) وجعل الإعجاز بجملته في سهولة الحروف وجريانها، جاعلا له فيما لا يصح إضافته إلى الله تعالى»(١)؛ إذن بهذا الشكل من الاستدلال يؤكد الجرجاني ومعه الأشاعرة حقيقة الإعجاز القرآني مبطلين قول خصومهم، ومظهرين فساده» وإن تعسف متعسف في تلاؤم الحروف، فبلغ أن يكون الأصل في الإعجاز،(...) كان الوجه أن يقال له : إنه يلزمك على قياس قولك، أن تجوز أن يكون ههنا نظم للألفاظ وترتيب، لا على نسق المعاني، ولا على وجه يقصد به الفائدة، ثم يكون مع ذلك معجزا وكفى به فسادا»(٢).

أبدع الجرجاني بهذا الربط الرصين بين مقولة "الكلام النفسي» و»المعاني النفسية» و»النظم» كصنعة يستعان عليه بالفكر وشكل ذلك موجها نظريا لجهد كثير من الباحثين في اللغويات(٣).

---

(١) ص ٤٧٦ من دلائل الإعجاز

(٢) ص ٦٠ من ن. م.

(٣) لم يقتصر الأثر الجرجاني على اللغويين، بل امتد إلى المفسرين والفقهاء، وقد عد الزمخشري من أبرز من نزل مقولات الجرجاني، نقرأ عنده "النظم هو أم إعجاز القرآن، والقرآن الذي وقع عليه التحدي،

٢ – ٣ : تأسيس مقدمات القول اللغوي : الإعجاز في النظم:

انقدحت إشكالات نظرية وعلمية بسبب نزول القرآن بلغة عربية، ما جعل مسار الفكر اللغوي العربي ينطلق من القرآن ليعود إليه، ومن المواضيع التي شكلت رائز الإخلاص للمنطلق البحث في مصدرية هذا الكتاب الكريم، وبيان مدى تمييزه عن كل أشكال القول المعروفة وإن التقى معها في اعتماده على حروف عربية، ينقل الدكتور أحمد العلوي عن ميشيل آلار قوله (١)، إن المشكلة الأساسية هي كشف الله عن ذاته بواسطة لغة يفهمها البشر و(...) نضيف (والكلام للعلوي)أن اختيار تلك اللغة العربية في الواقع كان مشكلة استدعى لحلها كثيرا من التصورات، فعن مشكلة المصدرية طرحت اصطلاحية اللغة أو توقيفها».

ومن المسائل التي انبنت على هذا الأصل النظري، وشغلت المتكلمين قضية إعجاز القرآن الكريم أمام موجات التشكيك في ربانية هذا الكتاب الكريم وفي نبوة الحبيب المصطفى عليه السلام، فاتجهت البحوث البلاغية وبحوث الإعجاز وعلوم القرآن والتفسير وعلم الكلام إلى بحث عن جهات الفرادة والتميز للقرآن.

٢ – ٤ : تأسيس كلامي للقول في الإعجاز:

ومراعاته أهم ما يجب على المفسر» (الكشاف ٢/ ٢٤)؛ ويقول عن أسرار الجمال القرآني: "هذه الأسرار والنكت لا يبرزها إلى علم النظم وإلا بقيت محتجبة في أكمامها»

(١) (الكشاف ٢/ ٣٠٢). أما أثره غي الفقهاء فيقول عنه صاحب إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة: "وهم يقدمون (يقصد الفقهاء والأصوليين) مدخلا لبحوثهم فيه تعريف بالقرآن وتواتره وإعجازه ثم عنه أهو لفظ أم معنى أم هما معا؛ ثم عن عربيته وعن بيانه ثم ينتقل إلى الأحكام التي اشتمل عليها القرآن، ونراهم يسمون هذا المدخل المبادئ اللغوية»، ص: ١٦٠.

١٦٣- العلوي أحمد، أسس منهج البحث في اللغويات العربية، مقال، مجلة كلية الآداب، فاس، عدد ١، سنة ١، ١٩٧٨.

عمل المتكلمون في جهدهم العلمي على إثبات إعجاز القرآن على المستوى النظري، يقول الباقلاني: فليس الإعجاز في نفس الحروف، وإنما هو في نظمها وإحكام وضعها أكثر من وجودها متقدمة أو متأخرة أو مترتبة في الوجود وليس لها نظم سواها، وهو كتتابع حركات، و وجود بعضها قبل بعض، ووجود بعضها بعد بعض "(١)

فالباقلاني يرى الإعجاز واقعا في نظم الحروف بما هي دلالات في كلام الله القديم، وتحدى الله الكافرين أن يأتوا بمثل الحروف التي هي نظم القرآن منظومة على نفس منوال ما ورد في كتاب الله، فالقرآن بهذا المعنى معجز نظما بما خرج به عن جميع الوجوه المعتادة في كلام العرب وباقي أساليب خطابهم من شعر وسجع وكلام موزون» (٢)

والإعجاز تجده شاملا لكل ما ذهب إليه القول البشري، فنظمه على تفرق وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وكم أسلوب يختص به و يتميز به مما اعتادته العرب، وتلك خصوصية ترجع إلى جملة القرآن وتميز حاصل في جميعه.

نحن هنا بصدد نظرة شاملة للإعجاز تبناها الباقلاني مخالفا بعضا من منتسبي الأشاعرة الذين تبنوا نظرة جزئية كما هي عند الجويني "المرضي عندنا أن القرآن معجز لإجتماع الجزالة مع الأسلوب والنظم المخالف لأساليب كلام العرب، فلا يستقل النظم بالإعجاز على التجريد، ولا يستقل الجزالة أيضا.

.. فيلزم من مجموع ما ذكرناه ربط الإعجاز بالنظم البديع مع الجزالة»(٣)

---

(١) - أبوبكر الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، ط ١، ١٩٩١ الجيل، بيروت ،ص ٢٩٤ .

(٢) ن م ص ٢٩٥

(٣) - الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الإعتقاد، ص ٣٤٩/ ٣٥٠

وما يهمنا هو الإشارة إلى توارد الأقوال التجريدية الأولى للمتكلمين مع أقوال صاحب الدلائل، لتأكيد رهان الجرجاني الأول على بيان حقيقة تميز الكلام الإلهي عن غيره، ما شكل موجه الفكر ومؤسس النظر للقول اللغوي الجرجاني .

٣ - خصوص الاستدلال على المرجعية الكامنة :

يوجه مولاي أحمد العلوي الباحثين إلى اعتماد مباحث المتكلمين في الذات والصفات مباحث لغوية عادية (١). فعند تطبيق البرنامج الأشعري تم صرفها إلى موضوعها الأصلي الذي هو الإنسان، ذلك أنه لا يمكن الحديث عن عالم الغيب دون المرور بعالم الشهادة» كما أنه من المستحيل الإمساك بالنواة دون المساس بالقشور، فكذلك يستحيل معرفة عالم الغيب دون معرفة أو المرور بالعالم المحسوس للموجودات»(٢)، وكذلك فعل المتكلمون وعبد القاهر الجرجاني.

ينطلق صاحب الدلائل مما أسسه شيخه الباقلاني في الإعجاز فيستحضر مطارحات الخصوم في شأن الإعجاز حيث يقول» أعجزتهم (العرب) مزايا ظهرت لهم في نظمه وخصائص صادفوها في سياق لفظه وبدائع راعتهم من مبادىء آيه ومقاطعها ومجاري ألفاظها ومواقعها وفي مضرب كل مثل، ومساق كل خبر، وصورة كل عظة وتنبيه، وإعلام و تذكير وترغيب و ترهيب ومع كل حجة أو برهان وصفه وتبيان، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشرا وعشرا وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا

---

(١) العلوي أحمد، الطبيعة والتمثال، مسائل عن الإسلام والمعرفة، الشركة المغربية للناشرين المتحدين ينظر فصل علم اللغة العام أو علم الكلام، من ص ١٥٥ إلى ص ١٦٦ .

(٢) - AHMED ALOUI Epistemologie de la linguistique arabe ; ١٩٩٨; Edition Okad ; p ١٥٨

اتساقا بهر العقول وأعجز الجمهور، ونظاما والتئاما، وإتقانا وإحكاما، لم يدع في نفس بليغ منهم، ولو حك بيافوخه السماء، موضع طمع حتى خرست الألسن عن أي تدعي و تقول، وخذيت القروم فلم تملك أن تصول»(١)

يظهر من النص أن القوم المقصودين بالإعجاز هم العرب بما هم الأصل المقتدى به وأئمة البلاغة .

فربطه للإعجاز بالنظم يلتقي مع هدفه من تأسيس نظريته اللغوية بمنطق شمولية هذا النظم لكل مناحي البناء القرآني شمولا يجعل الإعجاز هو الآخر أكثر من خصيصة للقرآن إلى كونه مناط التمايز المؤسس بين قول إلهي مفارق لأنظمة القول البشري كلها، وآخر محايث هو من نتاج البشر مهما اختلفت العصور والأمصار. فميدان النظم فسيح، ومرماه بعيد بُعْد ما أراده الله لكلامه ودينه من هيمنة على غيره من ألوان الكلام وصور الأقوال تأسيسا وتفسيرا.

لذلك فالإعجاز عند الجرجاني في النظم و السياق وترتيب الآي وتآلف عناصرها، وتنوع الموضوعات، وحسن ملاءمة الكلمة لأختها، لعله بذلك يرد على من رأى الإعجاز في جانب واحد متعلق بالحروف وحسن مخارجها " وإن تعسف متسعف في تلاؤم الحروف، فبلغ به أن يكون الأصل في الإعجاز، وأخرج سائر ما ذكروه من أقسام البلاغة من إن يكون له مدخل أو تأثير فيما له كان القرآن معجزا. كان الوجه أن يقال له: إنه يلزمك على قياس قولك، أن يجوز أن يكون ههنا نظم للألفاظ و الترتيب على نسق المعاني، ولا على وجه يقصد به الفائدة، ثم يكون مع ذلك معجزا و كفى به فسادا»(٢) وما جر هذا الخصم المعتزلي إلى جزئية النظرة للإعجاز إلا قول أول في الكلام بجعله حروفا

(١) - دلائل الإعجاز ص ٣٩

(٢) ن. م. ص ٦٠

منظومة وأصواتا مخصوصة، لذلك يرفض الجرجاني كون الإعجاز في الألفاظ المفردة، لأن ذلك يؤدي إلى المحال وهو كون الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة قد حدث في مذاقة حروفها وأصدائها أوصافا لم تكن؛ لتكون تلك الأوصاف فيها قبل نزول القرآن، وتكون قد اختصت في أنفسها بهيئات و صفات يسمعها السامعون عليها إذا كانت متلوة في القرآن، لا يجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن»(١). فهو ينسب لنزول القرآن تأسيسا لصورة الإعجاز في الكلام العربي شعره ونثره عند السامعين؛ وذلك بشرط ضم لفظ لآخر على هيئة مخصوصة اختص كتاب الله بصورة فريدة تميزت عن باقي ما عرف من سائر الكلام.

وليعود الجرجاني إلى مركزية المعنى في عملية الضم و النظم يرد على من أفرد اللفظ بالمزية دون المعنى فيما عرف من الشعر يقول:» واعلم أن الداء الدوي الذي أعيى أمره في هذا الباب، غلط من قدم الشعر بمعناه، وأقل الاحتفاظ باللفظ وجعل لا يعطي المزية – إن هو أعطى – إلا ما فضل عن المعنى، يقول ما في اللفظ لولا المعنى؟ وهل الكلام إلا بمعناه؟

فأنت لا تراه لا يقدم شعرا حتى لا يكون قد أودع حكمة وأدبا، واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر، فإن حال إلى اللفظ شيئا ورأى أن ينحله بعض الفضيلة لم يعرف غير الاستعارة»(٢). يظهر من كلامه تمثله لنظرية الأشاعرة في طبيعة الكلام وربطه بالمعاني النفسية وبالتالي التركيز على الجانب المعنوي الذي يتأسس على معطيات مرتبطة بالمتكلم إنتاجا وبالمستمع فهما وتفسيرا، والمعنى عند الجرجاني يقصد به "معنى بلاغيا» يربط فيه الكلام بمقتضى الحال، ومن الباحثين من يذهب بعيدا في قراءة هذا التمثل، فيجعل هذا

(١) – ن م ص ٣٨٦

(٢) – ن م ص ٢٥١ – ٢٥٢

التوجه مؤسسا لمذهب المعنى في اللغة والبلاغة والنقد»(١)، وإن كنا لا نرى هذا الرأي، لما دافعنا عنه في فصول البحث من أن درجة تمثل الجرجاني للقول الأشعري الأول يجعله فوق هذه الثنائيات التي أطرت النظر العلمي في اللغة والبلاغة والنقد لأجيال عديدة، وذلك بتأثير من هندسة معرفية للكلام لم تتخلص من عقلية التقابلات والثنائيات تماهيا مع حالة انفصام الذات التي يسكنها آخر في تمثلاتها وخياراتها؛ مما جاء كتاب الله نصا وصورة وحكما ليقومه.

وكما أن الإعجاز يتجاوز أن يكون في الحروف فقط لا يجوز أن يكون في الحركات السكنات و لذلك سقط ادعاء من رام محاكاته كما فعل مسيلمة الكذاب في حماقاته " إنا أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر، والطاحنات طحنا....»(٢) . مسيلمة عندي حالة مثلية تتجاوز كونه حضورا لشخص في زمان ومكان محددين إلى كل حالة ادعت مضاهاة القول القرآني تأسيسا وتفسيرا؛ كما فعل من تجاوز بالنظر المعاني والبحث اللغوي مداه الحقيقي إلى مديات انكشف تهافتها وظهرت كذب ادعاءاتها، واحتاج معها التنظير اللساني والبحث اللغوي إلى محطات للتسديد لن تتحقق في نظرنا إلا بمذهبية واضحة تؤكد للإنسان الباحث حقيقة التكريم الإلهي والإعجاز القرآني في شموله. ولأن الذاكرة العربية تعمرها أقوال الشعر، ويوشك أن تختلط عندها الأوزان في الشعر بالفواصل في القرآن، فان الجرجاني ينفي أن يكون الإعجاز في المقاطع والفواصل» لأنه ليس بأكثر من التعويل على مراعاة وزن، وإنما الفواصل في الآي كالقوافي في الشعر»(٣). فموسيقى

(١) - السامرائي، محمد مهدي، -تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية، ط١، ١٩٧٧، المكتب الإسلامي، ص ٧٨ و ما بعدها

(٢) - دلائل الإعجاز ص ٣٨٧

(٣) . م. ن؛ ن. ص .

القرآن فريدة فرادة نظمه ومفارقة مفارقة وجوده لسائر أنماط الوجود. ولبلاغة القوم الذين خوطبوا بالقرآن في البداية ينفي الجرجاني أن يكون الإعجاز في الاستعارة لمحدودية ورودها في القرآن ولذلك فهي لن تكون سببا مستقلا في الإعجاز لما يؤديه ذلك من قصر الإعجاز في أي معدودة وسور مخصوصة...(١)

امتنع الإعجاز إذن أن يكون في تلك الوجوه وغيرها مما يستوجب تأكيد حقيقة كونه في "النظم» على الصفة التي يحددها الجرجاني في "ليس هو في ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق؛ ولكنه تناسق دلالات الألفاظ وتلاقي معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل»(٢) فها هنا تصور الأشاعرة لصفة الكلام يوجه النظر اللغوي الجرجاني، فالألفاظ تتبع المعاني وهي ترجمة لأسبقية الكلام النفسي القديم على الأمارات والعلامات(٣). الدالة عليه الحادثة، والألفاظ هنا ليست مفردة بل بما بينها من علاقات، وإدراك العلاقات بين الألفاظ ونظمها نظما خاصا يؤدي إلى معنى معين بحيث لو تغير النظم لتغير المعنى، ولا فصاحة في اللفظ إلا وهي موصولة بغيره ومعلقة معناها بمعنى ما يليها.

---

(١) . ن م ص: ٣٩٣.

(٢) . ن م، ص: ٤٩ – ٥٠.

(٣) . الآية كما وردت في القران تجاوز دلالة كونها مقطعا نصيا إلى كونها أمارة على صدق من قال وعظمة من قدر، وقهر من قضى، إنه الله سبحانه؛ ويعلم ذلك من تتبع نصي لسياق ورود لفظ آية أو آيات في القران الكريم في منهج تفسيري محدد، تبنى جهد استثمار أقصى إمكاناته بعض المعاصرين كما نجده في الجهد المحمود لأستاذنا الدكتور مولاي امبارك العلمي في كتابه "الطور الأول: فطرة الإيمان في القرآن» ضمن دراسة في معالم وأطوار قضية الجبر والاختيار؛ في سلسلة الدراسات القرآنية المستكشفة لسنن الهدى والضلال في القرآن الكريم. الكتاب صدر في طبعة أولى في رجب الحرام ١٤٢٩ ه/ يوليوز ٢٠٠٨ م؛ مطبعة ألفا سكان.

فإذا قلنا في لفظة (اشتعل) من قوله تعالى: "واشتعل الرأس شيبا» (سورة مريم من الآية ٣) إنها في أعلى مرتبة في الفصاحة لم توجب تلك الفصاحة لها وحدها، ولكن موصولة بها الرأس معرفا بالألف واللام ومقرونا إليها الشيب منكرا ومنصوبا»(١)

لا يخفي الجرجاني في جل ما أورد أنه منخرط في مناظرة مع خصوم فكريين داخليين وخارجيين، ذلك أن كل قول من أقوال هو رد على قول سابق(٢) وتجد عبارات من قبيل "يقال لهم ... فقولوا الآن ولابد من "لا» لأنهم إن قالوا، "يجوز» أبطلوا التحدي»(٣) ومن قبيل، "وهذا سؤال لهم ... قالوا ... قيل ...»(٤)، إن كل ممارسة حوارية في واقع التداول الثقافي والاختلاف العلمي هي ممارسة كلامية يستوجبها اختلاف عقائد المتحاورين، وموازين السلط الثقافية، وحالة الاستقطابات العلمية، وفي إطار الخطط التي يضعها سدنة "القول العلمي» المسكون طوعا أو كرها بنزوعات إنسانية ترافق المنتوج البشري عبر العصور، لا يكشف عن أشكالها وصورها إلا بحث رصين في البدايات والمنطلقات والمبادئ؛ ثم بعد ذلك في الأطر والنماذج والنظريات؛ وأخيرا في المقاصد والمآلات. مما لم يستكمل البحث اللغوي العربي الحديث والدرس العلمي المعاصر شروط تحقيقه ولا صور تنزيله؛ فما أحوجنا إلى عودة روح القول الجرجاني فينا تأصيلا وتأسيسا وليس تحليلا ومقارنة له بغيره على سبيل إثبات الأصالة والمعاصرة، وإن كنا نرى أن القول الكلامي في منتهى تشكله يجد تعبيراته صارخة في أنظار الإنسان للكون وخالقه، فما من

(١) . ن م، ص: ٣٩٣

(٢) . من يراجع نسخة الدلائل التي قرأها وقدم لها وعلق عليها أبو فهر محمد محمود شاكر يجد هوامش تشير إلى هؤلاء الخصوم.

(٣) . ينظر النص كله في دلائل الإعجاز، ص: ٣٨٥.

(٤) . ينظر أيضا، ص: ٤١٨ من ن م.

احد من الباحثين وما من بشر إلا وهو "متكلم» على نحو من الأنحاء ما دام قوله قائما على رسوخ المخلوقية وثابت الافتقار في النظر والفكر كما في المعاش أو ادعاء الكفاية والاستغناء.

انبنت قضايا التحليل اللغوي عند عبد القاهر الجرجاني على مذهبية واضحة أبدع بها مفاهيم جديدة في حقل اللغة مثل مفاهيم التعليق والبناء والإسناد كتجليات لمستوى نظمي مخصوص، يؤسسه بحث فيما يكون به القول ملكا لصاحبه، وعلى رأس تلك الأقوال، الكلام الإلهي المعجز، وهو ما يطلق عليه أحد الباحثين(١) بالإطار التملكي للغويات العربية، ذلك أن البحث في اللغة أطرته مع الجرجاني جملة أبعاد اعتقادية، أسس بها عبد القاهر لمنطق جديد في التفاعل مع قضايا اللغة مستثمرا أقوال سابقيه(٢).

والبحث في اللغة بمفاهيم التملك يشكل توجيها للتحليل اللغوي نحو ربط المنجز اللفظي أداء والمتصور ذهنيا معنى بصاحبه في كل تجليات مكونات شخصيته قدرة وثقافة وتواصلا، وبهذا يقدر حجم الطفرة التي أحدثها التصور الجرجاني، مما سيسعف في وقتنا الحاضر في استجلاء ملامح نظرية لغوية عربية لا تقبل الركون إلى ما وقر عند السابقين وما سكن إليه المحدثون من أمر الصناعة النظرية اللغوية التي تطوع المتن النصي ليتناسب ومقاسات المقولات الموجهة للبحث اللساني في غفلة من أصولها الابستمولوجية والنظرية أو منطلقاتها الفلسفية، أو تدعي لذلك البحث أهدافا لا تراعي كون العبارة اللغوية في مبدإ وجودها ومنتهاه ترجمة كلية أو جزئية لمنتجها، وهذا ما تحيل

(١) . ينظر فصل لغويات الكسب وتمثالها من كتاب " الطبيعة والتمثال: مسائل عن الإسلام والمعرفة " لأحمد العلوي، ص: ٢٢٧ وما بعدها.

(٢) . لن ندخل هنا في جدال من الأسبق في وضع مصطلح النظم أهم المعتزلة ممثلين بالجاحظ أم الأشاعرة ممثلين بعبد القاهر الجرجاني

عليه نصوص الجرجاني وتحليلاته اللغوية، وما كان ذلك يحدث لو لم يكن البحث اللغوي الجرجاني وفيا لبرنامج أول وضعه صاحب النظر في القضايا الوجودية يقول مولاي أحمد العلوي: "يجب أن نلاحظ أن الفكر النظري اللغوي كان يجعل مسألة التملك في قلب اهتماماته ولهذا كان للبلاغة مركز كبير وأقصد هنا البلاغة بكل مكوناتها: الكتابات البلاغية المحضة وكتابات الإعجاز وعلم الكلام وكتابات علوم القرآن، هذا الاهتمام راجع إلى دور النص القرآني في "تحريك " الفكر القديم وإلى الوضعية الخاصة للفكر اللغوي النظري الذي حتم عليه أن يقوم في سياق كلامي – لغوي خاص، هذا السياق هو أن الحضارة "الإسلامية»، قائمة بجانب "حدث» كلامي هو التنزيل القرآني»(١).

الموجه القرآني للبحث اللغوي يشكل سلطة وازنة حاضرة بالأصالة أو التبعية في كل جهد تحليلي، ذلك أن التفكير اللغوي بما هو أحد تجليات أنشطة الذهن البشري لابد وأن يقع اختيارا أو اضطرارا في منطقة المقارنة بين الإنساني والإلهي؛ المحايث والمفارق. وهذا ما ادعت بعض الأدبيات اللسانية الحديثة تجاوزه لما يشكله من عائق معرفي بل ومنهجي في بلوغ التفسير اللغوي درجة العلمية متناسية أن هذا الادعاء تأكيد لحضور هذا المنطق، يؤكد ذلك أن البحث اللغوي في الأدبيات الغربية الأولى كان بدافع من الرغبة في مقاربة النصوص اللاهوتية، لذلك عد القرآن "حدثا كلاميا» لأنه يقيم علاقة بين وجودين مختلفين: الوجود المتكلم الإلهي والوجود الحاصل الذي ينطلق إليه الكلام الإلهي ونحن هنا نستعمل لفظ الوجود في الحالين للاضطرار»(٢) لأصالة الافتراق والاختلاف والمفارقة مما جعل علماء الكلام يضعون هدفهم الأسمى ألا وهو تنزيه الذات الإلهية عن كل شبيه ومثيل، بل إن مرمى التنزيه سبيل لتحقق التوحيد والإقرار بالألوهية؛ يقول

(١) . الطبيعة والتمثال، ص: ٢٢٩.

(٢) . م ن، ص: ٢٢٩.

الدكتور مبارك العلمي في جمعه ما تفرق موضعا من آي الذكر الحكيم " ومثل آية الكرسي سورة الإخلاص، فقد آثبت الله تعالى فيها لنفسه الأحدية والصمدية، وتستجمعان كل صفات الكمال والجلال الواجب له سبحانه، ثم نزه نفسه عن صفات النقص، وجماعها عدم مشابهته لشيء ما من خلقه " قل هو الله أحد، الله الصمد،لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد» (الاخلاص١/ ٤) وصفات التنزيه تأكيد لصفات التوحيد والتأليه، وهذا الأسلوب شائع في القرآن الكريم»(١).

أحسب؛ وبعيدا عما جاس خلال النظر اللغوي الحديث من علمانية متخفية؛ أن النظر الجرجاني يقع في منطقة إثبات صفات التنزيه ببيان فرادة النظم القرآني تأكيدا لصفات التوحيد التي يجب أن يرمي إليها كل نظر في اللغة؛ نحوا كان أو معجما أو تركيبا أو بلاغة بكل مكوناتها كما أثبتها نص العلوي؛ وإلى تأكيد متى تتجلى المذهبية التوحيدية الحاكمة للنظر في اللغة، وإلا فدونها اضطراب في المنطلقات وتخبط في التوجهات وبالتالي اختلال في معايير الوصف والتفسير اللغويين؛ تارة بلغة الإسقاط وأخرى بمنطق التطويع وثالثة برسم أهداف للبحث اللساني تغيب السؤال الجنيالوجي للقول العلمي سواء كان في اللغة أو باللغة أو في غيرها وبغيرها.(٢)

تاريخ البشرية أحداث كبيرة وأفكار عظيمة مهدت لها؛ فلم تشذ لحظات التفكير اللغوي البشري عن هذه القاعدة؟ مما يظهر أهمية تاريخ الأفكار بما هي "مجمل النظريات

(١) - العلمي مولاي امبارك، سنن الهدى والضلال في القرآن الكريم، دراسة في معالم وأطوار قضية الجبر والاختيار، الطور الأول، فطرة الإيمان في القــرآن ضمن سلسلة الدراسات القرآنية، ط ١، رجب الحــرام ١٤٢٩هـ/ يوليوز ٢٠٠٨م، مطبعة ألف سكان، ص: ٥٦

(٢) - يراجع في ذلك كتابات غربيين لم تستثمر كما يجب في البحث اللساني منها .كتابا ميشبل فوكو "حفريات المعرفة» و»الكلمات والأشياء»وأعمال جورج كوسدورف في كتابيه "الأسطورة والميتافيزيقا» و "تحليل الميتافيزيقا " .

والمفاهيم والتصورات العامة المجردة التي يكونها الفكر البشري في مجالات مختلفة قصد التعبير عن واقعة من الوقائع، أو ظاهرة من الظواهر أو معنى من المعاني»(١). فالنظر في المذهبية عند الجرجاني هو بحث في استنساب لأفكار الجرجاني ولا نخفي هدفنا - وكما عرف عن الجنيالوجيا بعد نيتشه - الذي هو تتبع أصل الفكر اللغوي الجرجاني رغبة في إضفاء طابع المعقولية والمشروعية عليه فيما هو مفيد لنا؛ وبيان نسبية غيره لنتجاوزه ونفيد منه مناطق بحث يجب تجاوزها علما أن منه ما يصدق فيه الوصف القرآني من الأنظار الغاشية والتي ذهبت بسداد رؤيتنا حيث لم تفسح لنا المجال للنظر والتساؤل والبحث في المنطلقات والمذهبيات(٢).

ونحن نذكر نيتشه نستحضر ما أحدثه مؤلفه المعنون "إرادة القوة» من طفرة في المنهج الجينيالوجي ففيه "إن ... جميع الظواهر عبارة عن تأويلات ولا توجد هناك على الإطلاق أية ظاهرة في حد ذاتها»(٣)، إذن جميع الأفكار والحقائق مجرد نتائج لتأويلات من يقترحون البرنامج الأول، وليس لتلك التأويلات حدود إلا ما يضعها مقترحو ذلك البرنامج، و ما يرافق ذلك "من إرادة القوة» حسب نيتشه» هل تريدون اسما لهذا العالم ...

(١) - الدواي عبد الرزاق، الجينيالوجيا وتاريخ الأفكار، مقال في مجلة "فكر ونقد» عدد ٣٠، السنة ٣ يونيو ٢٠٠٠.

(٢) - خرج من رحم ذلك الموج الغاشي كتاب قيم في مرماه صغير في حجمه للأستاذ مصطفى الحداد بعنوان "اللغة والفكر وفلسفة الذهن» طرح فيه سؤال مصير العقائد والإبداعات أمام هذا الوابل من جهود الحوسبة لكل شيء وبأي ثمن في نقاش علمي من " بوتنم " لجهود " اللسانيات النظرية "

(٣) - Nietzsche. La volonté de puissance Traduction de Géné vève Biauques Paris Gallimard ١٩٤٨ Tome ١ p: ١٤٦

وحلا لجميع أسراره وألغازه؟ إنه إرادة القوة، ولا شيء غيرها»(١).

إرادة القوة التي يحيل عليها القول النيتشي لا تتوارد إحالة مع ما نريده نحن من تأصيل القول اللغوي من "إرادة للقوة» يمثلها الكلام الإلهي، ويضع البشر في موقع طلب التسديد في فعل التعقل للظواهر والأشياء، أو موقع الزيغ في ادعاء الاكتفاء والاستغناء بما هما طريقان للطغيان. ولذلك فلما جعل علماؤنا منطلقهم في بناء النظرية اللغوية والبلاغية النموذج القرآني، لم يكونوا لا "سلفيين» ولا "خلفيين» ولا "رجعيين» وإنما كانوا "إنسانيين» بما تحمله كلمة "الإنسان» في عمق شكل الوجود وصور النظر وأشكال التعاطي مع الكون والحياة، فأبدعوا في التنظير وأجرأوا في التطبيق وأخلصوا للقيم المثلى الحاكمة للتفكير العلمي تأطيرا والنظر البشري ممارسة من غير إحساس بعقدة أو نقص، فصلحت أفكارهم لتكون هادية لكثير من صور الاستثمار للغة في ميادين الحياة

ألا يقوم دليلا على عمق النظر قدرته على تجاوز متاريس التاريخ والجغرافيا لينتصب منارة هادية لغيره رغم حالة الاغتراب التي تعرفها الذات، وجهود التغريب التي يتولى كبر تنفيذها سدنة الفكر العالمي بلغات مختلفة وبلسان ينطق العربية لفظا و يعجم في المنطلق والرؤية وإن توهم الحصانة والأصالة في مقابل ما تعرفه بعض الأعمال العلمية من عياء نظري وفوضى تطبيقية!!!

٤- امتداد القول الجرجاني :

اعتماد القرآن منطلقا في النظر؛ وبناء آفاق المعرفة أحد المنطلقات الكبرى في بناء النظام المعرفي الإسلامي؛ وعلى غيره تعتمد باقي الأنظمة والنماذج المعرفية ، ف " كل قول وكل

(١) . م ن؛ ص ٢١٦؛ نقلا عن مقال عبد الرزاق الدواي السابق ص: ٢٠ - ٢١ واستندنا في توثيق النص على المرجع الأصل .

نص يحتوي على نموذج معرفي، ظاهر أو كامن "[1]، ويترتب على هذا الارتباط سؤال المعتمد وصلته بسؤال المعيارية؛ هل هناك معيارية أساسا ؟ ومن أين يستمد الإنسان معياريته : من عقله المادي، أم من أسلافه، أم من جسده، أم من الطبيعة / المادة، أم من قوى تتجاوز حركة المادة ؟ ... . و يلزم لذلك تتبع قيم النظام المعرفي؛ والتي تنطبع في تفاصيل القول العلمي .

٤ – ١ : النظام المعرفي وقيمة التوحيد:

يبعث المشروع الجرجاني في بحثه عن مكامن التميز والفرادة بمقاربة ملكية الأقوال وحكمها القانوني بإشارات للعلوم أن تحتكم إلى نظام معرفي يستلهم النموذج الكلي ويبلور الرؤية الشمولية، تكون علوم اللغة والبلاغة علوما دارسة للظاهرة اللغوية ولصور القول الإنساني؛ كلية وشمولية لا تلغي الخصوصية ولا التخصص، إنها مستلهمة من الواحد يقول وليد منير "فالواحد (أي الله تعالى) لا يعني في تجسيده للقيمة الزمنية اتحاد الأشكال في نمط، ولكنه اتحاد الأنماط في شكل، وهذا هو المعنى الأصيل للاختلاف والتواصل»([2])

فهو نظام لا ينفصل عن نظام الاعتقاد أو نظام القيم بتأصيل العبودية لله تعالى بما يعنيه ذلك من ربط لسلطة الفعل الإنساني بسلطة الأمر الإلهي "هذه الدائرة ... تعبر عن فلسفة الفكرة القرآنية في أعمق صور التجريد والتوحيد "وإليه يرجع الأمر كله» (هود

(١) اللغة والمجاز؛ ص ٢١٩

(٢) – منير وليد، أبعاد النظام المعرفي الإسلامي ومستوياته، مجلة إسلامية المعرفة، س ٥ ع ١٨ خريف ١٤٢٠ / ١٩٩٩ ص١١١. أعيد نشره في كتاب
" نحو نظام معرفي إسلامي» تحرير الدكتور فتحي حسن ملكاوي، الطبعة الأولى ١٤٢٠ه/ ٢٠٠م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، مكتب الاردن .

/ ١٢٣) و»إلى الله ترجع الأمور» (البقرة/ ٢١٠)»(١)، نظام يترجم رحلة البشر المضنية إلى الحقيقة. وجدير بعلوم اللغة والبلاغة أن تعيش مكابدة السؤال الوجودي بوسيلة البحث في اللغة وبها؛ ولقد تفنن الغربيون في إبداع أفكار ورؤى ونظريات مسائلة لعمق الوجود وترجم ذلك أعمالا علمية؛ فإلى جانب أعمال تنتقد التفكير الديني والميتافيزيقيا. قامت أعمال أخرى تعيد تأسيسها وذلك باعتماد أداة التأويل العلمي(٢)، وما تريد العلوم الإنسانية واللسانية بلوغه أكثر من درجة "العلمية»!!! وهذا الاتجاه نحو إعادة الاعتبار للدين هو ما يجب أن نتواصل معه ونستفيد منه في بناء معرفتنا اللسانية؛ وهو ما يمثل قوة دافعة ومنهجا مسددا وأداة مقومة، بعيدا عن لغة التقابلات بين البيان والعرفان والبرهان(٣) في منطق المعرفة الإسلامية " لأن هيمنة النص لا تعني إهمال الدليل عليه، وتحصيل الدليل عليه لا يعني إهمال الكشف الحدسي والذوقي (والعلمي)، وبيان النص محور يدور عليه وبه فلك المعارف، وتقاس إلى حركته في الجهات حركة الفكر، ولا يعني ذلك تحكمية النص وإنما يعني مرجعيته؛ فهو(حقل مقايسة) يضمن الثبات الكلي رغم التحولات الموضعية التي تمتلك اختيارات مفتوحة وإمكانات متعددة»(٤).

إن جهد الجرجاني يندرج في سياق منطق حاكم للعلوم في الإسلام تجلى فيه:

-تماسك النسق وتجانسه بتواز خاصية التركيب البنيوي.

-الإجابة عن أسئلة العالم في تناغم بين الوسيلة و الغاية.

---

(١) م ن ص ١١٣.

(٢) ٦٦- نعيد التذكير بأعمال فوكو في: "حفريات المعرفة " و» الكلمات والأشياء ": وأعمال جورج كوسدورف في: "الأسطورة والميتافيزيقا "traite de metaphysique فمصاحبتنا لهذه الكتب وجهنا إلى ما نراه من حضور "الدين» في الممارسة العلمية ومنها اللغوية والبلاغية قديما وحديثا.

(٣) - أبعاد النظام العربي الإسلامي، م م، ص ١١١

(٤) - م. ن. ص: ١١٣.

وبذلك تتجاوز العلوم عموما ومنها علوم اللغة والبلاغة؛ إن هي استلهمت هذا المنطق؛ ما ساد مقدمات الفكر الغربي من تنازع الغاية والوسيلة؛ والإنساني والكوني والإلهي، وما طبع تلك المقدمات من ترسيخ لقيمة القوة لتؤسس لقوة القيمة، ولا نحسب الإيغال في تطبيق النماذج وتطويع المتن المدروس ليستجيب لمتطلبات نظريات الدراسة على حساب سؤال المقدمات والبرامج الأولى إلا صارفا عن المسار الصحيح .

إننا عندما نتحدث عن حاجة الدرس اللغوي والبلاغي إلى الاستهداء بالضوابط المعرفية الإسلامية لا نقدمها بصفتها ايديولوجيا متضمنة لبرنامج وحيد للعمل؛ بل إننا نراها إطارا عقيديا يبلور منهجا للرؤية على قاعدة استيعاب هذه المعرفة لكل صور الخير والفضل والعدل في العالم؛ وقديما قال ابن القيم في كتابه "الطرق الحكمية» "إذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأي طريق كان فثم شرع الله»(١).

٤ - ٢: المعارف الإسلامية ومسطرة التوحيد: استلهام النظر الجرجاني:

الأصل في العلوم لإسلامية وحدة الأصل والمصدر؛ لأنها نشأت ابتداء من الوحي كتابا وسنة وتوسعت بتوالي العصور لتستقر على أوضاع محددة، مما ألزمها في منطق انبنائها الوفاء لخيط ناظم يظهر في تكاملها وعلاقاتها كما رصدنا جانبا منه في علاقة علم الكلام بغيره. ولكن وبسبب من حالة التعارك الثقافي والسياسي والعلمي ظهرت مفردات ليست أصلا في البناء؛ ولكنها عرضا في مسار تطور هاته العلوم، فصنفت بناء على ثنائيات كالتمييز بين العقيدة والشريعة والعقل والنقل والحكمة والشريعة...؛ التي تطورت في صيغ معاصرة وفي ظل أجواء الصراع والاستلاب والانفصام إلى الأصالة والمعاصرة، والحداثة والتقليد، والعقلانية والشرعانية، والبيانية والبرهانية ...

(١) الطرق الحكمية لابن القيم، نقلا عن م س، ص ١٢٦.

فغيب الفكر الموحد الذي يستوعب هذه الثنائيات في سياق تكاملي لا تقابلي(١) "فالتداخل بين العلوم – رغم اختلاف مجالات بحثها ودراستها– أمر وارد في كل زمان ومكان، وذلك لجواز أن يكون بعض من مسائل العلم مبادئ لبعض آخر»(٢)

لم يشذ الفكر اللغوي عن الانضباط لمسطرة التوحيد الحاكمة لكل نظر عند المسلمين. فها هو الجرجاني في»دلائله» يؤكد أن عمله يتسمد منطقه من عقائد التوحيد؛ يقول في خطبة "دلائل الإعجاز» "هذا كلام وجيز يطلع به الناظر على أصول النحو جملة، وكل ما به يكون النظم دفعة، وينظر منه في مرآة تريه الأشياء المتباعدة الأمكنة قد التقت له حتى رآها في مكان واحد، ويرى بها مُشْئِما قد ضم إلى مُعْرقٍ، ومُغَرّبًا قد أخذ بيد مُشَّرق»(٣).

فالجرجاني يرى أن عمله قرب ما كان متباعدا وربط ما كان متنافرا إخلاصا منه لمبدأ التوحيد الحاكم للقول اللغوي.

ومسطرة التوحيد تلك لا تقتصر على مرحلة من مراحل الدرس اللغوي العربي ولا على فرع من فروعه فهي سَنَن تطور الفكر النحوي و(اللغوي): "(...) إن حضور اللغة النحوية في كتب البلاغيين وحضور اللغة البلاغية والنحوية عند الأصوليين دليل على أن البحث اللغوي عند العرب كانت توجهه عقائد توحيدية "(٤). يعتبر في ذلك بعمل

(١) ينظر بحث سعيد شبار "من أجل منهاج قرآني تجديدي في الفكر والعلوم الإسلامية (رؤية منهجية) "ضمن الندوة العلمية التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء أيام ٢٧ – ٢٨ صفر ١٤٢٩، ٥ – ٣ مارس ٢٠٠٨ نشرت ضمن سلسلة ندوات علمية (٢) في ط ١ – ٢٠٠٨ دار أبي رقراق للطباعة والنشر.

(٢) – الكليات للكفوي: ص ٤٢٦ نقلا عن محمد الدرويش، ينظر ص: ٣٩ من أطروحته "اللغة النحوية في كتابات ابن مالك»، رسالة نيل دبلوم الدراسات العليا في ١٩٩١ بكلية الآداب الرباط.

(٣) دلائل الإعجاز، ص: ٣.

(٤) اللغة النحوية في كتابات أبي مالك، ص: ٤٤، ومن الهامش .

سيبويه الذي حطم فيه الحدود الفاصلة بين الكائن اللغوي والكائن الفيزيائي، ذلك أن مفاهيم النحو والصرف من تميز وتغير وتمكن ... مفاهيم فيزيائية.

قد لا نحتاج في أطروحتنا هاته إلى كثير عناء في بيان مسطرة التوحيد هاته، لدفاعنا عن فرضية كون "تداخل المعارف والعلوم حقيقة في وجودها لا اجتهادا نظريا»؛ حيث نعدها في منطلق فعلها ومنتهى نظرها زاوية إدراك يتوحد فيها فعل التعقل وتختلف في عمليات التأليف الممكنة بحسب الأدوات والنماذج والأطر الحاكمة لذلك النظر. وهذا ما يجعل حديث التكامل بين العلوم عودة بها إلى منطق أصل قيامها؛ لذلك لم ننسق مع من جعل جهد الجرجاني في "دلائله» ربطا بين البلاغة من خلال "علم المعاني» وعلم النحو(١)، بل وباقي علوم اللغة وفنون القول. لكننا نقر لذلك الجهد بفضل شمولية الرؤية للكائن العباري وذلك بربطه بالمتكلم، وجعل المعنى أصلا في بناء المنجز اللفظي على قاعدة إن الكلام "معاني نفسية تترتب ذهنا ثم تترجم لفظا ".

ما يهمنا ليس التدليل على السبق أو التأثير، ولكن نفيد منها صور تمثيل لأطروحتنا نرى فيها الفكر اللغوي واحدا بقدر ما هو مختلف. ومتنوع بقدر ما هو متوحد، توحدت المفاهيم فاختلفت صور التوظيف، واختلفت النظريات فتوحدت في المنطلقات، لما يستوجبه موضوع اللغة في الدراسة من اختيار أحد السبيلين: إما فصل لها عن الإنسان المتكلم، فتكون أدوات الدراسة بنيوية وصفية ظاهراتية، وأما ربط لها بالإنسان المتكلم فتكون المناهج تأويلية حكمية تعاقدية؛ تساءل فيها الأصول، ويحدد فيها الحكم القانوني للكلام، وتمتح من بحوث الإعجاز والبلاغة وعلم التفسير وعلم الكلام والهيرمينوطيقا أدوات النظر وإجراءات التحليل. ندفع بالقول الجرجاني إلى مداه، ونضرب صفحا-

(١) - الأصول: دراسة ابستيمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي، دارالثقافة، الدار البيضاء، ص ٣٤١.

لضرورة منهجية- عن استدعاء السياق التاريخي لقوله في علاقته بتغيرات موازين القوى السياسية والاجتماعية في الدولة الإسلامية في عصره؛ لا هروبا من حقائق التاريخ فذلك ما لا نستطيعه ولكن تعلقا بالأصل الموجه المتعالي عن تداعيات الزمان والمكان، فيكون تغير النظر فيه بسبب من حالة القصور والميل الإنساني والذي لا يلغي ثبات منطقه، وإصابة كل ناظر فيه بصدق قدرا من الصواب؛ ألم يجعل الجرجاني كتابه ليس شيئا إلا "دلائل» على إعجاز القران!!!.

خلاصات :

لعلنا كشفنا من خلال هذا الجهد الرابط بين علم الكلام والدرس اللغوي، ما يمكن أن يقوم به "علم كلام جديد» مرافق لعملية التلاقح الفكري وعمليات "المثاقفة» من صيانة للمبادئ المقررة دينا بالوحي الإلهي، والمؤسسة وجودا في الخلق البشري، مما عد إشراقات لهذا الفكر في لحظات انتصار الفطرة السليمة على الثقافة المكتسبة المناقضة لها، ويكون على هذا العلم المرافق تقديم تصورات وصياغات "نظرية للفكر الإسلامي في لغة معاصرة،»(١) ويكون بذلك منهجا جديدا في التفكير والتحليل، ينطلق من الموجهات الإسلامية الكبرى، ويتأسس على مقولات عظمى تعتبر ضمان السير في عمليات إنتاج المعرفة، وتتحقق بقدر من الإدراك المطلوب لمستجدات العلوم والمعارف على قاعدة العدل والإنصاف واستثمار المفيد منها في بناء صرح إنساني عالمي متعال على فوارق الجنس والجغرافيا والتاريخ.

وهو علم كلام متحرر من أسر سلطتين متقابلتين تراثية قد تثقل كاهله بركام من

(١) شبتشري محمد مجتهد، الكلام الجديد تساؤلات في الموضوع والمنهج، مجلة المنطلق عدد ١١٣.

المعارف والعلوم لا يقوم دليل على وجاهة نظرها إلا ما ضمن منها صفة الامتداد والاستمرار بفعل ما امتلكه من قدرات التعميم والتوليد والانفتاح على متغيرات الزمان والمكان، وأخرى غربية استغراقية ملكت من وسائل التمكين المادية والإعلامية ما جعلها تنسي متلقيها جوهر السؤال حول حقيقة وجودها، ووجاهة مقولاتها كلا أو جزءا. ولعل المتابع لمسار الفعل اللساني العربي الحديث ليلحظ هذا التخبط بسبب من عدم الحسم في أصول الأقوال، أوعدم الدفع بالنظريات إلى مداها لتنكشف عنده قوة الإجراء وقيمة الإبراء. بل تواطأ قوم على الاستنساخ والتكييف والتطويع بفعل عقدة "الآخر» الذي يملك كل شيء، ونحن "المفتقدون» لترسانة من النظريات والعلوم.

ويضطلع علم الكلام الجديد بوظيفة الكشف عن أصل التدين في القول العلمي البشري بتتبع مصدري وكشف تحليلي مما يفيد في أمرين:

– الأول التحقق من جرعة التوحيد أو غيره في الأقوال العلمية.

– الثاني التنبؤ بحجم النتائج التي يمكن أن تصل إليه هذه الأعمال والنظريات؛ مما يوفر طاقات عبر التنبيه على المزالق المحتملة والتوهيمات الملتبسة التي جعلت كثيرا من جهود البحث العلمي ومنه اللغوي سباحة في الهواء، لم يمتلك أصحابها شجاعة تغيير المنحى لما يظهر فشله بل قاموا يكيفون "المتن» ليستجيب لتنظيراتهم(١)، وهذا ما جعل باحثا غربيا يتحدث عن "لعبة الاختزال» ممارسة بين العالم والفكر من جهة، والفكر

(١) – يرى جاك بوفيريس أنه: "مهما كانت الظاهرة المدروسة؛ فإننا نبدأ في افتراض أو بناء عالم مجرد» JACQUES Recherches sur la philosophie et le langage université des Sciences sociales de Grenoble BOUVERESSE et autres ١٩٨٤ p:٦٣.

واللغة من جهة ثانية، واللغة الطبيعية واللغة الواصفة من جهة ثالثة(١). فالتوحيد عندنا ليس ترديدا ولكنه مقتضيات نظر وفعل تنظير مما يجب أن يلازم أي قول علمي بشري ليظل مبتغاه تحقيق مبدأ "التعبد» حفظا للبشرية من نزعات "التأله» المدعية والمفترية، فيقدم "المتكلم» توضيحا وتفسيرا يرفع تهافت أي نظرية علمية جديدة أو "قديمة» متضادة مع المسلمات الدينية.

ومن الإشكالات المطروحة بهذا الصدد ما تحدثت عنه الفلسفة النقدية والمذاهب الحديثة في العالم المعاصر حول حدود الفهم البشري؟ وما الذي يمكن للبشر معرفته، ومالا يمكن معرفته(٢) مما طرحه كانط(٣) في سياق نقده لجميع البراهين، ونقد إثبات وجود الله في علمي الكلام والفلسفة، ومما نعود طرحه ولكن من منطلق تساؤل إبراهيمي، وحجاج حنيفي ضد الملل الأصنامية. وهي مقولات وسعت في الغرب حيث التقطها فتغنشتاين وطرح السؤال: ماذا يمكن للبشر أن يقولوا، وماذا لا يمكن أن يقولوا؟.(٤) ضمن ارتباط بين الكلام الجديد والفلسفات الحديثة ومنها فلسفة اللغة.

ونحن موجهون في النظر للفعل الإلهي المؤسس بضرورة استحضار تلازم القول والكون في الأمر الإلهي مصداقا لآية تكررت عندنا "إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون» (يس آية ٨١-

(١) - ينظر في هذا الصدد لوسيان تينير في "عناصر التركيب البنيوي» (بالفرنسية) فصل ٣٤ و ما بعده .

(٢) - نضرب مثالا بذلك عدم خوض الباحثين في اللسانيات النفسية في الغرب في حدود مفهوم "القدرة» بالشكل الذي يربطها بالمنحى الحاسوبي العام الذي أطر قصدية الجهود اللسانية .

(٣) - رضى كاشفي محمد فلسفة الدين والكلام الجديد،، ترجمة محمد شمص، مجلة المنطلق، العدد ١١٩، خريف، شتاء، ١٩٩٧-١٩٩٨/ ١٤١٨.

(٤) - المرجع نفسه، ص: ٥١.

٨٢)(١).

ألم يئن لنزعة السيطرة هاته أن تتوقف، وأما آن لإنسان هذا العصر أن يعود إلى حجمه الحقيقي، أم أننا سنظل ننتج فعل سيزيف. إن البشرية اليوم واقعة في جوانب كثيرة من حياتها تحت خدع أسطورية علمية واجتماعية وسياسية حديثة(٢) ولن تتخلص من ذلك إلا إذا تحررت من سيطرة مفاهيم "التأله» مما ذكر أو لم يذكر.

ولذلك سيكون من جهات هذا التوجه العلمي تأمين المقدمات المتناسبة مع حقيقة العلوم وجوهر عملها، وطبيعة أدواتها، ولنا في تعالق العلوم في الإسلام بعضها ببعض خير مثال،

ومن صوارف الفهم الحقيقي لعلم الكلام اعتماد تعريف غائي له بحسبانه غير منتج للمعرفة، والواقع غير ذلك، فهو علم تحصيل المعرفة يحدد تبعا لموضوعه(٣) خلاف العلوم ذات الهوية الآلية التي تعرف حسب الهدف والوظيفة. وما رمناه من تفصيل القول في النظام المعرفي الإسلامي يسهم في تحقيقه علم الكلام الجديد بوضعه "مسلمات الأفكار الدينية والمبادىء التصورية أساسا للنظام المعرفي، على سبيل المثال عندما يحتج المتكلم بالقرآن لتبيين اعتقاد خاص، عليه أولا أن يتحقق من جميع المقولات التي تستند إليها حجية الكتاب المقدس باعتبار أن لها الأسبقية والتقدم منطقيا على سائر القضايا

(١) - يقول العلوي: إذن تلخيص الأطروحة أن الله يتكلم وهو يخلق، ويخلق وهو يتكلم» فكلامه تأسيس، ص: ..... Epistémologie de la linguistique arabe

(٢) مقالة: "الله في الفلسفة الحديثة والفكر المعاصر» لجيلسون Eternne GILSON نقلا عن المقال السابق من مجلة المنطلق، ص: ٤٩.

(٣) - قراملكي احمد الهندسة المعرفية للكلام الجديد، ترجمة حيدر نجف و حسن العمري ، مراجعة عبد الجبار الرفاعي، ط١ ١٤٢٣ - ٢٠٠٢ دار الهادي بيروت ص ٥٨

الأخرى» [1]. قد تختلف سياقات هذه الوظيفة حسب الأزمان، فهي التي أطرت علم الكلام عند المسلمين عندما كانت الحاجة ماسة إلى تبين الأصول العقائدية والإيمانية للإسلام حينما ووجه المسلمون بالأديان والفلسفات الأجنبية، أليست المقولات العلمية والنظريات المعرفية» أديانا» جزئيا أو كليا؟

الكلام بذلك المعنى كسب للمعرفة طبق ضوابط الوحي والتوجيهات السماوية ولذلك فهو متعلق بالتعاليم الدينية كموجهات مؤسسة لا كأقوال معزولة. ومجرد امتلاك هذا التعلق يكفي لأن يكون مناطا لتمتعه بموضوع[2]. وهو ينجز مهاما[3] تتحدد في:

١) الارتقاء من حضيض التقليد إلى أوج اليقين والتحقيق.

٢) إرشاد الآخرين عن طريق تبيين وإقامة البرهان.

٣) حفظ قواعد الدين من هجوم شبهات المخالفين والمنكرين (الملحدين).

٤) بناء فروع الدين على الأصول والأسس العقائدية الثابتة، وهنا يظهر دوره في مختلف العلوم.

٥) إيجاد الإخلاص في العمل عند البشر... وإيصالهم إلى الفوز والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة.

ولن يخرج في كل ذلك عن وسائطية معرفته بين الوحي والمكلفين، في تصحيح العقائد وتوضيح المفاهيم والتبيين المنظم للاعتقادات، وإثبات التعاليم ودفع الآراء المخالفة.

وما أحوجنا اليوم إلى هذا الجهد المخلص عسانا نوفر على الأمة سنوات من

---

(١) . م.ن ص ٦١

(٢) . م.ن ص ٨٧

(٣) . م.ن ص ٨٩

"التجريبية» في استنباتنا للعلوم والمعارف بل أن نوفر على العالم أجمع طاقات تهدر لَمَّا يسير البحث العلمي على غير هدى من العالم الأول.

المصادر و المراجع

القرآن الكريم.

١. المصادر والمراجع بالعربية:

- أبو حامد، الغزالي:

الاقتصاد في الاعتقاد، قدم له وعلق عليه وشرحه الدكتور علي أبو ملحم، ١٩٩٣، دار مكتبة الهلال، بيروت.

- أبو زيد، أحمد :

المنحى الاعتزالي في البيان وإعجاز القرآن، ط ١ ١٩٨٦، مكتبة المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط.

- الآمدي، سيف الدين:

المواقف في علم الكلام. -غاية المرام في علم الكلام، تحقيق حسن محمود عبد اللطيف، ١٩٧١، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.

- الإيجي، عضد الدين

المواقف في علم الكلام، عالم الكتب، بيروت.

- الجرجاني، عبد القاهر

* دلائل الإعجاز تحقيق محمود محمد شاكر (أبو فهـــر)، ط١، ١٩٨٩، مكتبة الخانجي، القاهرة.

* أسرار البلاغة، قرأه و علق عليه أبو فهر محمود محمد شاكـر ط ١ ١٤١٢ هـ -

١٩٩١م، نشـــر مطبعــة المدني بالقاهـــــرة و دار المدني بجدة .

- الجندي، درويش:

نظرية عبد القاهر في النظم، ١٩٦٠، مكتبة نهضة مصر.

- الحداد، مصطفى

اللغة والفكر وفلسفة الذهن، منشورات الأعمال الاجتماعية لموظفي كلية الآداب، تطوان.

- الدرويش، محمد

اللغة النحوية في كتابات ابن مالك، رسالة جامعية، مرقونة بخزانة الأطروحات، كلية الآداب الرباط،١٩٠-١٩٩١.

- السامرائي، محمد مهدي

تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية، ط١، ١٩٧٧، المكتب الإسلامي.

- العلوي، أحمد

* الطبيعة والتمثال، مسائل عن الإسلام والمعرفة، الشركة المغربية للناشرين المتحدين.

* أسس منهج البحث في اللغويات العربية، مقال، مجلة كلية الآداب، فاس، عدد ١، سنة ١، ١٩٧٨.

* آية الفكر وكبرياء النظر، مقال، مجلة الموقف، عدد ١، مارس ١٩٨٧.

- العلوي، سعيد بنسعيد:

الخطاب الأشعري،مساهمة في دراسة العقل العربي الإسلامي دار المنتخب العربي بيروت.

- دنياجي، نور الدين

التفكير اللغوي عند عبد القاهر الجرجاني، ط١٩٩٧،١، منشورات مجموعة البحث في اللسان العربي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

- سلطان، منير

إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، ط٣، ١٩٨٦، منشأة المعارف، الإسكندرية.

- فوكو، مشيل

حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، ط ١، ١٩٨٦، المركـــز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

- موسى، جلال محمد عبد الحميد

نشأة الأشعرية وتطورها، ط١٩٧٥،١ دار الكتاب اللبناني.

- وليد، منير:

أبعاد النظام العربي ومستوياته ضمن حلقة دراسية حول "نحو نظام معرفي إسلامي» تحرير فتحي حسن ملكاوي، منشوارت المعهد العلمي لفكر الإسلامي، مكتب الأردن، ط ١ ١٤٢٠/ ٢٠٠٠، عمان الأردن.

-أبو المعالي، عبد الملك الجويني:

الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، حققه وعلق عليه : محمد يوسف موسى وعلي عبد المنعم عبد الحميد، مكتبة الخانجي، مصر.

-أبو بكر الباقلاني:

* كتاب التمهيد، تصحيح رتشرد يوسف مكارثي اليسوعي، المكتبة الشرقية، بيروت،١٩٧٥.

* إعجاز القرآن، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، ط ١، ١٩٩١ الجيل، بيروت.

-أغلو، أحمد داود:

* النظام المعرفي الإسلامي والغربي ضمن حلقة دراسية حول "نحو نظام معرفي إسلامي» تحرير فتحي حسن ملكاوي، منشورات المعتد العلمي للفكر الإسلامي، مكتب الأردن.

* تحليل مقارن للنماذج المعرفية الإسلامية والغربية، من كتاب "نحو نظام معرفي إسلامي»، تحرير فتحي حسن ملكاوي، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان ١٤٢٠-٢٠٠٠.

-الدواي، عبد الرزاق:

الجينالوجيا وكتابة تاريخ الأفكار، مجلة فكر ونقد، العدد ٣٠، السنة الثالثة، يونيو ٢٠٠٠.

-الرشدان، محمود عايد:

حول النظام المعرفي في القرآن الكريم، مجلة إسلامية المعرفة عدد ١٠ السنة ٣ طريق ١٤١٨/ ١٩٩٧.

-الرفاعي، عبد الجبار:

علم الكلام الجديد وفلسفة الدين، ط ١، ١٤٢٣ - ٢٠٠٣، دار الهادي، بيروت.

-الزمخشري:

الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة بيروت.

-الشاطبي، أبو إسحاق:

الاعتصام، حققه وقدم له أبو الأجفان.

الموافقات، تقديم بكر بن عبد الله بن أبي زيد، ضبطه وقدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط١، ١٤٢١هـ، دار ابن عفان.

-العجم، رفيق:

أثر الخصوصية العربية في المعرفة الإسلامية، ط ١، ١٩٩٣، دار الفكر اللبناني، بيروت.

-العلمي، مبارك:

سنن الهدى والضلال في القرآن الكريم، دراسة في معالم وأطوار قضية الجبر والاختيار، الطور الأول، فطرة الإيمان في القــرآن ضمن سلسلة الدراسات القرآنية، ط ١، رجب الحــرام ١٤٢٩هـ/ يوليوز ٢٠٠٨م، مطبعة ألف سكان.

-المسيري، عبد الوهاب:

* في أهمية الدرس المعرفي، مجلة إسلامية المعرفة، العــدد ٢٠، السنة ٥ ربيع ١٤٢١/ ٢٠٠٠.

* اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود دار الشروق؛ بيروت؛ الطبعة الثالثة؛ ٢٠١٠ .

- بلبع عيد :

دلائل الإحكام في البلاغة القرآنية؛ الطبعة الأولى؛ ٢٠١٤؛ مصر العربية للنشر والتوزيع القاهرة .

-دزه يي، دلخوش جار الله حسين:

الثنائيات المتغايرة في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني دراسة دلالية، ط ١ – ٢٠٠٨، دار دجلة – الأردن.

-دیناجي، نور الدين محمد:

التفكير اللغوي عند عبد القاهر الجرجاني، قراءة في لغة الخطـاب، ط ١ -١٩٩٧، مطبعة النجاح الجديدة -الدار البيضاء – منشورات مجموعة البحث في علوم اللسان العربي.

-شبشتري، محمد مجتهد:

الكلام الجديد تساؤلات في الموضوع والمنهج، مجلة المنطلق، عدد ١١٣.

-ضفيهي محمد حنيف:

نظرية إعجاز القران عند عبد القاهر الجرجاني في كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، ط ١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، المكتبـــة العصرية، صيدا، بيروت.

-قرا ملكي، أحمد:

الهندسة المعرفية للكلام الجديد، ترجمة حيدر نجف وحســن العمري، مراجعة عبد الجبار الرفاعي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣-٢٠٠٢، دار الهادي، بيروت. (إصدارات مجلة "قضايا إسلامية معاصرة»).

- موسى، جلال محمد:

نشأة الأشعرية وتطورها، ط ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، دار الكـتـاب اللبناني بيروت.

المراجع باللغة الأجنبية:

- Alaoui Ahmed

Epistémologieque de la linguistique Arabe,1998, édition Okad.

- Foucault Michel

* Archéologie de savoir, éditions Gallimard.

* les mots et les choses , 1966, édition Gallimard.

- Gusdorf Georges

* Traité de physique, Armond collin.

* Mythe et Métaphysique, dirigé par Fernand Braudel,

Flammarion.

- Tesniére Lucien

Elément de syntaxe structurale préface De jean fourquet, 2ème édition revu rt Corrégée, 1969 Kinck sieck,Paris

-Nietzche,

La volonté de la puissance, Traduction de Geneviève Bianquis, Paris, Gallimard 1948, Tome 1.